

## شخصيات قومية

على باشا مبارك

١٨٩٣ — ١٨٢٤

زعيم نهضة العلم والتعليم في عصر اسماعيل

بقلم الاستاذ الجليل : عبد الرحمن بك الراجي

تناول الاستاذ الجليل عبد الرحمن الراجي بك ، في العدد الماضي ( مارس سنة ١٩٣٢ ) بالبحث والتحليل : نشأة على باشا مبارك الأولى ، ونشأته الثانية في المدارس النظامية ، فدخله مدرسة ميت العز ، فانتقله الى مدرسة قصر العيني ، ثم انتقله الى مدرسة أبي زعبل ، وكان الاستاذ الراجي بين ذلك كله يحلل العصر الذي عاش فيه على مبارك من الناحية العلمية والتاريخية بما عرف عنه من الصدق في الرواية ، والدقة في الاسلوب ، والبراعة في الاستنتاج .  
وفي هذا العدد تناول النواحي الاخرى من حياة على باشا مبارك التي يراها القراء بعد مـ  
المحرر

### دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل المترجم مدرسة المهندسخانة ، وكان إذ ذاك يافعاً إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ فضوجه العلمي يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس حتى استكمل جميع علوم المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منذ دخلها ، فكان دائماً أول فرقة ، وكان أساتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ممن علا ذكرهم في فجر النهضة العلمية ، أمثال : محمود باشا الفلكي ، وطاغل افندي ، ومحمد بك أبو سن ، ودقلة افندي ، وابراهيم بك رمضان ، واحمد بك فايد ، وسلامه باشا ، وناظر المدرسة المسيو لامبير بك أحد علماء الفرنسيين ؛ وهؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ، ولم تكن ثمة كتب مؤلفة في الفنون التي تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون والتلاميذ يكتبون ما يسمعون في كرايس ، كل على قدر اجتهاده ، وكان المعلمون - كما شهد لهم بذلك المترجم - « يبذلون غاية جهدهم في التعليم » ، وفي آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا يطبعون بعض الكتب في مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ إلى أن تكاثرت طبع الكتب المطولة في العلوم والفنون الرياضية .

## انتظامه في سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تمددت البعثات العلمية إلى أوروبا في عهد محمد علي باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلا في الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية ( ص ٥١ وما بعدها )  
وتخرج من البعثات طائفة من النوابغ في عصر محمد علي ، واسماعيل ؛ ومن حسن توفيق المترجم وحسن استعداده أن انتظم في سلك البعثة الخامسة ، وهي أكبر البعثات شأنًا ، وفيها بعض أنجال محمد علي وأحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك ( بعثة الأنجال )  
تولى القائد سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمي مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم في مبدئها سبعين تلميذًا ، منهم : الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد علي ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير اسماعيل ( الخديوى ) من أنجال إبراهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز الكبيرة في الحكومة بعد عودتهم ، أمثال : شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وعلى إبراهيم باشا ، ومحمد عبد العاطى باشا ، وسليمان نجاشى بك وغيرهم (١)

وقد بدا من المترجم لمناسبة التحاقه بهذه البعثة ، ما فطر عليه من الميل الشديد إلى العلم ؛ فان المسيو لامبير بك ناظر المهندسخانة رغب إليه البقاء ليحمله مدرسًا ، وأفهمه أن بقاءه يجعل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله في سلك التلاميذ ، ويفوت عليه تلك المزية ؛ لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ليزداد اكتسابًا للعلوم « ولأن سفره مع الأنجال مما يزيده شرفًا ورفعة »

سافرت البعثة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاءها سنتين بباريس ، ولأجلهم أنشئت المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية ، وإعدادهم لدخول المدارس العليا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقى المترجم في دراسة اللغة الفرنسية مصاعب جمة ، ذلها بقوة العزيمة ، فقد كان إلى عهد انتظامه في البعثة خير عارف بتلك اللغة ، شأنه في ذلك كشأن العلامة رفاعه رافع الطهطاوى حينما انتظم في البعثة الأولى ؛ واقتضى نظام التعليم في البعثة أن يجعل من المتقدمين في الرياضات ( ومنهم المترجم ) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لافرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها ، ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس ؛ ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يبخلون على مثل على مبارك بالتعليم لينفردوا بالتقدم .

(١) ذكرنا أسماءهم ، وترجمنا لنوابغهم في الجزء الثالث من ( تاريخ الحركة القومية ) ص ٦٥ وما بعدها .

فكث المترجم مدة لا يفهم الدروس التي يسمعا ، وخشى العاقبة ، فعالج هذه الصعوبة بالصبر والمثابرة وقوة العزيمة ، ذلك أنه أخذ يدرس الفرنسية بنفسه ، واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية في الهجاء واللغة ، وأكب على مطالعتها وتفهيمها وحفظها ، وبذل في هذا السبيل جهداً لا ينقطع ثلاثة أشهر متوالية مع متابعة الدروس التي تلتق بالفرنسية ، فأثمر الحفظ والجهد ثمرة كبيرة ، وصار أول البعثة كلها ، وكان يتبادل الأولية مع زميليه : على ( باشا ) ابراهيم ، وحما ( باشا ) عبد العاطي .

ولما جاء ابراهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة إلى باريس ، أقيم له احتفال حافل ، وحضره امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم ، ووزع بنفسه الجوائز على الناجحين منهم ، وناول على مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب في الجغرافية لمؤلفه الميسو ( الماطرون ) مع مجموعة خرائطه ، ودعا الطلبة إلى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً وحنناً لهم على متابعة الدرس والتحصيل .

يتجلى لك في هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس مبلغ قوة إرادته ، ومثابرته على الدرس والتعلم ، ووثمة ظاهرة أخرى تزين هذه الصفحة ، وهي بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة راتباً شهرياً قيمته مائتان وخمسون قرشاً ، فجعل نصفها لأهله يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس . وهذا البر بالأبوين يدل على ما تجملت به نفس على مبارك من الوفاء ومكارم الأخلاق ، وإنكار الذات ؛ ولا شك أن هذه المزايا مما يزين شخصية المترجم ويزيدها سطوعاً وهاء .

### التحاقه بمدرسة متر الحرية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألحق الثلاثة الأوائل من أعضائها وهم : على مبارك ، وحما عبد العاطي ، وعلى ابراهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز ، ونالوا رتبة الملازم الثاني في الجيش الفرنسي ، فأقاموا سنتين آخرين يتعلمون الفنون الحربية . وبعد أن أدوا الامتحان النهائي ألحقوا بالجيش الفرنسي ، فكان على مبارك في الألاي الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ؛ وبديهي أنه اكتسب بانتظامه في هذه الفرقة خبرة حربية كبيرة ، في الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التي نالها في مدرسة المهندسخانة ببولاق ومدرسة باريس ومدرسة متر الحربية ، فلا غرو أن صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه في إدارته لمصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال المصرية في عصر اسماعيل . وكان ابراهيم باشا يرغب في أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلماً ، وأن يطيلوا مكثهم في الخدمة العسكرية بفرنسا حتى يستوفوا تجاربها ، ثم ينتقلون في الديار الأوربية الأخرى ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا مافياها من المنشآت الهندسية والحربية ، ولكن وفاته حالت دون إتمام

هذا البرنامج ؛ فلما خلفه عباس الأول طلب إلى نوابغ البعثة العودة فوراً إلى مصر ، فرجعوا إليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة إلى دور العمل والانتاج .

### عمل المترجم في عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الاطلاع ، صادق العزم ، مقبلاً على العمل بكل ما فيه من نشاط وهمة ؛ ولو وجد من ولاية الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته في النهوض بأعمال التقدم والعمران ، ظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته إلى مصر ؛ لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءته ، فانتضى نحو أربعة عشر عاماً ، والبلاد تكاد تحرم أعماله المنتجة ، وخاصة في عهد سعيد الذي لم يكن يقدره حق قدره . ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا في عصر اسماعيل الذي عرف كيف يوجه هذه القوة إلى إحياء النهضة العلمية في البلاد .

### تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحرية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر ، أن عين مدرساً بمدرسة طره الحرية ؛ ولكن التعليم في عهد عباس باشا الأول كان مصاباً بالجمود والاهمال ، فتناقص عدد التلاميذ في هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة ( المفروزة ) التي اختار لها الطلبة من جميع المدارس بعد إلغاء معظمها ، ولم يبق بمدرسة طره إلا عدد قليل من الطلبة المتقدمين في السن ، وأمعت المدرسة في التأخر حتى لم يبق في الفرقة التي يلتقي فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد . صار المترجم إذن بلا عمل ، وليس هذا مما تميل إليه نفسه ، لأنه اعتاد الكد والدأب على العمل ؛ ولقد حدثته نفسه أن يتخلف عن المدرسة في أجازة ليزور أهله بعد غيبته الطويلة عنه ، فرغب إليه ناظر المدرسة في البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه إذا هو غاب عنها . وسعى له الناظر عند سليمان باشا الفرنساوي القائد العام للجيش المصري ، ليصطحبه في مهمة حربية ، هي اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ، فتم له ما أراد ، وصحب المترجم سليمان باشا إلى دمياط ، وأدى ما كان مطلوباً منه ، وهو ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسماً مفصلاً لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ، ثم ذهب إلى بلدته برنبال ، وكان أهله قد رجعوا إليها منذ مدة واستقروا بها .

### زيارته لأهله

فدخل البلدة على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره إلى منزل أبويه ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائباً بمصر ؛ ولم يكن بالمنزل سوى والدته وبعض إخوته ؛ وكان قد فارق أمه منذ أربع عشرة سنة ، ولم تكن تتوقع حضوره في تلك الليلة ، فلما طرق الباب قيل : من أنت ؟ فقال : ابنكم على مبارك ، فقامت مدهوشة وقصدت إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتمن النظر



لتتحقق الخبر ، وكان بردائه العسكرى متقلداً سيفه وحاملاً شوار الضباط ، فلم تصدق أنه ابنها حتى أعادت سؤاله ، وتحققت أنه هو ، ففتحت الباب ، وما أن رآته حتى ارتمت عليه تعاقه ، ووقعت مغشيا عليها من الدهشة والفرح والتأثر ، ثم أفقت ، وجعلت تبكى ، وتضحك ، وتزغرد ، وجاء أهل البيت والآقارب والجيران يهرعون ، وامتلاأت بهم الدار ، واقتضى الليل حتى الصباح ، والناس بين رأنح ووغاد ، يحيئون له نهضة ، وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودة ابنها العزيز ، وبلوغه هذه المرتبة العالية . وبعد يومين قضاها بين أهله وعشيرته عاد إلى دمياط ، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى ، نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعته عنده موقع الاستحسان ، وأثنى عليه الثناء المستطاب .

### التحاقه بمعية عباس باشا

وفى أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى ، سعى له فى منصب آخر بدلا من التدريس فى مدرسة طره ، فنجح فى إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان مقره الاسكندرية . فذهب إليها المترجم ليستلم منصبه الجديد ؛ ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته هو ، وحماد بك ، وعلى بك ابراهيم ، وكلفهم امتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ، وأنعم على كل منهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة واستبدل بالمهندسين القدماء مهندسين أكفاء من خريجي مدرسة المهندسخانة ؛ وأتم فى خلال ذلك مهمات أخرى هندسية ، فأحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً لهذا المشروع . ولما عاد إلى القاهرة عهد إليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك كبير مهندسى القناطر الخيرية ، وضع نظام مرور السفن من القناطر التى كان بنساؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة ، وأحيلت عليه وعلى زميله على ابراهيم وحماد عبد العاطى كل الأعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة .

### مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس فى وضع نظام جديد للمدارس بعد أن ألقى معظمها ؛ ففى أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانه تبلغ ٢٠٠٠٠ كيس ( ١٠٠٠٠٠ جنيه ) ، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم ، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون فى مكان واحد ، وبإدارة ناظر واحد ؛ واستبعد الرصدخانه من المشروع لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولكثرة نفقاتها .

### نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابه، وأحالته على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين، فبحثوه وأقروه، وأنعم على المترجم لهذه المناسبة برتبة أميرالاي، وعهد إليه بتنفيذه، وجعله ناظرًا لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية، وكلفه اختيار مدرسي مدرسة المفروزة، ووضع نظام للتعليم فيها، واختيار ما يلزم لها من الكتب، فاضطلع بهذه المهمة، وعظمت منزلته عند عباس باشا.

وبذل جهداً عظيماً في ترقية شأن المدارس التي تولى إدارتها، فكان يرشد المعلمين إلى خير الطرق للتدريس، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها، ويباشر تأليف الكتب المدرسية بنفسه، يعاونه بعض المعلمين، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية وآلايات الجيش نحو ستين ألف نسخة من كتب متنوعة، غير ما طبع في كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة من الكتب ذات الأطلال والرسوم، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس كالطبيعة والعمارة، ويعني شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، ويسهر على حسن معاملتهم، فارتقت حالتهم الفكرية والمعنوية، وكاد يتنعم الضرب والسجن من المدارس.

### عمله في عهد سعيد باشا

#### اشترأكه في حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مرضياً عنه من سعيد باشا، فقد ذكر أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة، ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة، واختلقوا عليها معاييب كثيرة، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم، فأمره بالاشتراك في حرب القرم سنة ١٨٥٤ صحبة الحملة المصرية التي كان يقودها أحمد باشا المنكلي.

وليس من ضير على الحكومة إذا عهدت إلى مثل على بك مبارك أن يشترك في حرب القرم، فقد نال حظاً كبيراً من التعليم الحربي، وتخرج في أرقى المدارس الحربية الفرنسية، ولكن ملاسبات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم تكن الاستفادة من خبرة المترجم الحربية، إذ لم يعهد إليه في حرب القرم بعمل حربي ذي شأن، تحرم من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها التقدير، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بالغاء مدرسة المهندسخانة، فالغرض الحقيقي كان إذن إبعاد المترجم وإقفال هذا المعهد العلمي العظيم الذي أخذ على عاتقه تربيته وإنهائه، فالعمل كما ترى ضرره أكثر من نفعه، وشره أكثر من خيره؛ لكن أهواء سعيد باشا (وقد كان دائماً كثير التقلب في الآراء) جعلته يصني لوشاية الدسائسين، ويوصد أبواب تلك المدرسة، ثم يحرم البلاد خدمات على بك مبارك العلمية، ذلك أن على مبارك، وإن كانت

دراسته العليا عسكرية، لكن نفسه اتجهت إلى ناحية أخرى غير الحياة الحربية، هي ناحية التعليم وتنظيمه والنهوض بأعبائه .

فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم في هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التي ازدهرت في عهد أبيه ؛ ولكن المعروف أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت في عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة إلا في عصر اسماعيل .

ويستفاد مما ذكره المترجم، أنه شعر بأن تكليفه مهمة السفر إلى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده والتكاثف به ، وهذا مفهوم من قوله : « أقمت بهذه السفرة قريباً من سنتين ونصفاً ، وقد لطف الله بي وأحسن إلي ، ورد كيد الحاسدين في نحورهم ، فاني وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار ، وما يلحق المجاهدين من الارجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ؛ لكنني رأيت بلاداً وعوائد كنت أجعلها ، وعرفت أناساً كنت لأعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » فيؤخذ من ذلك أن ثمة حاسدين كانوا يكيدون له ؛ ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر إبعاده إلى بلاد القرم وإرساله إلى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والاضطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم ، وعاد من الحرب سالماً ، ونال منها مزايا جمة .

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة ؛ فإن الاشتراك في الحروب من شأنه أن يقوى في النفس روح الشجاعة والاقدام ، ولو اشترك المترجم في اقتحام المخاطر والبقاء في خط النار لكان أثر هذه الحملة في نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من الشجاعة والجرأة ، ولوقف من الحكومات المتعاقبة التي تولت الحكم في مصر مواقف أعظم شأناً من خطة الدين والمسالمة التي اختطها لنفسه ؛ ومهما يكن من الأمر ، فلا نزاع في أن مداركه قد اتسعت ، وخبرته قد اكتملت في تلك الحرب .

أقام المترجم عشرة أشهر في بلاد القرم ، وكان يعهد إليه أمر المفاوضات والخبرات بين الروس والترك ، وأقام ثمانية أشهر أخرى في بلاد الاناضول أغلبها في مدينة (كوشخان) ، وكان منوطاً به تسهيل نقل الجند من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود إلى مدينة أرضروم بأرمينيا ؛ وعلى كون هذه المهمة ليست من ضروب القتال الفعلية ، فقد لاقى فيها الشدائد والاهوال ، لشدّة البرد ، وكثرة الثلج في تلك الجهات ، ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز ما فيها من العقبات بين جبال شاهقة وأودية سحيقة .

وقد مرض كثير من الجند لما أصابهم من البرد القارس ، وأنشأ لهم المترجم مستشفى بكو مشخان ، نظمته تنظيمًا حسناً ، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤساء الجند .

### عودته الى مصر والوظائف التي تولاها

ولما عاد المترجم إلى مصر اعترضته في الحياة عقبات ومتاعب جمة ، ذلك أن سعيد باشا أمر بإخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم إلى بلادهم ، ورفعت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم على بك مبارك . فسكن في بيت صغير ، وعانى غصاصة العسر والضييق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا كحالته عند ما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمل فيه من المناصب والوظائف ، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، ودخله الهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم يجد من ولاة الأمور إنصافاً ولا تقديرًا ، واعتزم الرجوع إلى بلده ، والاشتغال بالزراعة ، وقال لنفسه ، « عوضنا الله خيراً في نتائج الفكر ، وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها » .

وبينا كان يتأهب للرجوع إلى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة ، فكان هو ممن أعيّدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول .

وبعد قليل عين معاوناً بوزارة الحرية ، وأحيل عليه النظر في التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبايات ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وعقمه ، ولكنه راض نفسه على الصبر ، عسى الله أن يأتي بالفرج القريب ؛ وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحرية ( اسماعيل باشا الفريق ) في وضع رسم لبعض المناورات الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار في إتمامه ، واستدعى على بك مبارك ، لما كان يعهد فيه من الكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ووعد به بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا .

وقد وفي اسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد باشا بالحق المترجم بمستودعي الداخلية ، وكان يحال عليه النظر في بعض القضايا ، ثم عهدت إليه وكالة المحكمة التجارية ، فاضطلع بأعبائها ، بأمانة ونزاهة ؛ ولكن سلفه فيها وشى به لدى سعيد باشا فرفرت منها ، فعاد كما بدا ، عاطلاً من المنصب ؛ واعتكف في بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشاً لهندسة نصف الوجه القبلي ، ثم استدعاه سعيد باشا ، وعهد إليه بوضع مشروع استحكامات أبي حماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع أبي حماد (جنوبي رشيد) بين فرع رشيد وبحيرة أدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصري من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات ، وأدى المهمة على خير ما يرام ؛ ولكنه عندما أراد أن يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه إليه ، وتردد عليه آناً في طره ، وآونة في قصر النيل ، فلم تيسر له مقابلته ، واضطر لملازمة معيته في السفر من بلد إلى بلد مدة ثلاثة أشهر ، بلا راتب ، ولا عمل ، دون أن يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، إلى أن رآه سعيد يوماً في الجزيرة ، فذكر الرسم الذي كتبه به ، وسأله عنه ، فقدمه إليه ، فنظر فيه قليلاً ولم يزد عن قوله له :

«أبقه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه»، وكانت هذه الاجابة نتيجة الانتظار ثلاثة أشهر، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك؛ ولكنه أمر أن يربط مرتب المترجم، وبقي في معيته زمنا بلا عمل، الى أن أصدر أمره باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط وصف الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب، فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة لكي يشغل نفسه بعمل ما، مهما كان ضئيلا، لأن نفسه تعاف الكسل والبطالة، فصار يدرس حروف الهجاء، والخط، والمبادئ الأولية في الرياضيات، والقواعد الحسابية، وعاونه في التدريس اثنان من المدرسين، ووضع في ذلك كتابا مختصرا في الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية، سماه (تقريب الهندسة).

وكان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وتدوين بعض الملاحظات على ما يقرأه؛ جمعها بعد ذلك في كتاب سماه (تذكرة المهندسين) يحتوي على فنون شتى يحتاج إليها المشتغلون بالهندسة. ولما اعترم سعيد باشا السفر لأوروبا أمر برفق معظم من كان بمعيته، فكان المترجم ضمن المرفوتين.

وأمر قبل ذلك ببيع مهيات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من تعلقات الحكومة التي اعتبرت «زائدة عن الحاجة»، فدهش المترجم إذ رأى هذه النفائس تباع بالمزاد بأبخس الاثمان، وفي جملتها الكتب التي طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة؛ ودخل في المزاد، واشترى من هذه الاشياء ما أمكنه اتياعه.

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر في الاشتغال بالتجارة، فتاجر فيما اشتراه وعامل التجار وكثر منه البيع والشراء، فربح واستعان بالربح على الاتفاق وأداء بعض الحقوق، واستمر يتاجر مدة شهرين، ثم فكر في التفرغ للتجارة والاعراض عن مناصب الحكومة؛ لما رآه من اضطراب الاحوال وتقلبات الامور مما كاد يفقده ثمرات العلوم؛ وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه فقد ما جمعه من الكد والتعب، فآثر الاحتراف بالتجارة، وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة، يجعل الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة، فيربحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية، فلم يجد من يوافقه على مشروعه، ففكر في القيام به بنفسه، وبينما كان يفكر في مخرج من الضيق الذي اشتد به، طرق سعيد باشا طارق المنون سنة ١٨٦٣، فكان لوفاته أثر كبير في حياة المترجم، ذلك أن اسماعيل لم يكده يعلى العرش حتى فكر في استخدام مواهب زميله القديم في البعثة، فافتتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك؟

عبد الرحمن الرافعي

(يتبع)

# البر بعد أوانه

الزهرة والسحاب

وهي إحدى درر الشاعر العصري الكبير  
الاستاذ محمد الهراوى

|                    |                     |
|--------------------|---------------------|
| مرت بواد مزنة      | فى يوم قيظ محرق     |
| فاستوقفتها زهرة    | ترنو بعين المصدق    |
| قالت لها : هل قطرة | من مائك العذب النقى |
| أروى بها عودى وأن  | جوى من هلاك المصدق  |
| وأعيد بعض نضارة    | ولت وأحفظ ما بقى    |
| فالحر طاح به حتى   | ومضى بفصنى المورق   |
| فاذا مننت بها على  | ى ذكوت بين الزنبق   |
| واخضر عود يابس     | ونما بزهر مونسق     |
| يامن تسير على جنا  | ح الريح نحو المشرق  |
| روحى لديك فهاتها   | لى من نذاك المصدق   |

\*\*\*

|                      |                    |
|----------------------|--------------------|
| فرت لها أم الحيا     | بالناظر المترق     |
| قالت لها : لبتك تليد | ة الكريم المشفق    |
| إنى سأرجع فاصبرى     | حتى أعود فنلتقى    |
| راحت وعادت للتى      | ماتت ولم تك تستقى  |
| صبت عليها من ندا     | ها الهاطل المتدفق  |
| هيات لا يحيى الندا   | أهل القبور ولا يقى |

\*\*\*

|                      |                |
|----------------------|----------------|
| البر خير ما عجل      | ت به لعان مرهق |
| فاذا ونيت فانت فى ال | إحسان غير موفق |
|                      | محمد الهراوى   |